التغـريب

في الأدب العربي المعاصر

د.حسن سالم هندي

مظاهر التغريب

المقدمة: .؟

التغريب : " كة موجهة لصبغ الثقافة الإسلامي والعربية بصبغة غربية وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص ،واحتوائها على النحو الذي يجعلها تفقد ذاتيتها وكيانها ،وتذوب فيما يسمى بـ(الثقافة العالمية)أو(الفكر الاممي)"( )

والتغريب حركة كاملة البناء له نظمه ووسائله وأهدافه ،وقادته،ودعاته وهو يعتمد على الأدب بوصفه أكثر القنوات الثقافية قبولا للأفكار ،فضلا عن وسائل الأعلام الأخرى والصحافة ودور الثقافة والمدارس والجامعات ،ويهدف عبر هذه الوسائل كلها إلى إثارة الخلافات والخصومات بين العرب والمسلمين ومحاولة التراث العربي والإسلامي إلى الفرس والهنود واليونان ،لذا نجد التغريب يهتم بدراسة ما قبـ الإسلام وإحيائه بصور شتى كصور الفرعونية والوثنية والجاهلية والفارسية والمجوسية القديمة.. كما يسعى إلى تمزيق وحدة الفكر العربي والإسلامي بعزل الأخلاق عن التربية ،والدين عن الأدب ،والسياسة عن الدولة ،كما يعمل جاهدا لنشر الإلحاد والإباحية ،والدعاية لهما ،لان الإنسان إنما يكون له وجوده وشخصيته بمبدئه الذي يعتقده وبقيمه التي يؤمن بها هذه المبادئ والقيم انهار الإنسان الذي هو نواة المجتمع .

- **التغريب بين المؤيدين والمعترضين**

منذ عقود خلت احتدمت المعركة بين "الحداثيين"و" "وكانت – -معركة حامية الوطيس بين دعاة الخروج على النص الحضاري(لغة وتراثا وشعرا) وبين رعاة هذا النص الذين رأوا فيه هويتهم فتمسكوا به،ووجودهم فدافعوا عنه شجاعة وقوة .

واكتسب دعاة التغريب من خلال الزخم الإعلامي الوافد والواقع العربي المعقد بريقا في عصر "صناعة النجوم " لكنهم لم يكتسبوا شرعية رغم كثائبهم المدججة بالمال ،فلم تتبلور لهم ملامح ولم تتحدد لهم قسمات فلقد ظلوا بالرغم مما يملكون من قوى مادية وظهور إعلامي يشعرون بغربة في المسافة وضيق في المكان،فصبوا غضبهم على التراث ودعوا إلى القطيعة بين الإنسان في حضارتنا وبين انتمائه إلى هذا التراث،فهم يصفون صلة الإنسان العربي بتراثه وصلة شعراء التفعيلة بتراثهم بالعقائدية،وصارت عندهم كتابة القصيدة على وفق نظام العمود الخليلي ردة عن الرؤية الحداثية للشعر ونقيضا للتطور وسلفية فكرية،ودعوا من البداية على نحو صريح للالتحاق بالغرب واخذ كل مافيه دون فحص وتمحيص فهذا سلامة موسى يقول:"كلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراض الأدب كما أزاوله فهي تتلخص في انه يجب علينا أن نخرج من آسيا ديانة وان نلتحق بأوربا ،فإنني كلما دت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني . .وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها وتعلقي بها ،وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها . . ."( )

وهذا عينه ما دع إليه طه حسين في معظم كتاباته ولاسيما في كتابه مستقبل الثقافة في مصر،إذ يقول:"إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ،وهي أن نسير سير الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ،ولنكون لهم شركاء في الحضارة،خيرها وشرها حلوها ومرها ،وما يحـ منها وما يكره وما يحمـ وما يعا ."( ) بيد ان تاريخ الأدب العربي لم يشهد وبعد مرور أكثر من نصف قرن على تلك الدعوات أقول لم يشهد ظهور أدباء من الحداثيين ودعاة التغريب مثل قامة المنفلوطي والرافعي أو روائي مثل على احمد باكثير ونجيب الكيلاني أو شاعر مثل حافظ أو ناجي والزهاوي،كما لم يفصح الأدب الحداثي المتأثر بنزعة التغريب عن منهجية واضحة و ذهب مستقر فكل الذي أنتجه تصورات عقلية فلسفية وصور مشوهة تخلو اغلبها من القيم العليا للإبداع،فسمة

الإبداع لديهم أن تخلو القصيدة من أي غرض أو معنى،ويفلسفون هذا بأن القصيدة التي لا يضمنه صاحبها أي غرض أو معنى تظل تنمو وتكبر وتتعدد معانيها بتعدد قرائها ،لذا لجـ و بها أشعارهم وكتاباتهم والتي كتبوها على طريقة المثلثات والمربعات والمستطيلات أو الرسم وبأسلوب الثورة على كل ما هو مقدس وعلى طريقـــ كسر الثوابت والمعتقدات ،فالأدباء عندهـ ولم يبدعوا إلا إذا حرروا أفكارهم من التـــــقيد بالدين والـــنظم الـــسائدة في المجتمـــع ســـواء أكانـــت اجتماعيـــة أم وطنيـــة أم قوميـــة ،فـــالأدب هـــو الأدب "اللامعقول"أو"اللاواقعي"أو"اللاأخلاقي"( ) وفي ذلك يقول صاحب كتاب "جدلية الخفاء والتجلي": "الحداثة مصادرها المعرفية لا تكمـ في المصادر المعرفية للتراث ،أو في اللغة المؤسساتية والفكر الديني ،ولكون الله مركز الوجود . . . .والحداثة انقطاع لان مصادرها المعرفية هي اللغة البكر والفكر العلماني ،ولكون الإنسان مركز الوجود".( )

وتضيف خالدة سعيد –وهي زوجة ادونيس-:"الحداثة أكثر من التجديد،فهي ترتبط بصورة عامة بالانزياح المتسارع فهي المعارف وأنماط العلاقات والإنتاج على نحو يستتبع صراعا مع المعتقدات مثلما فعل جبران . فهي كسر الشرائع وكشف الحقائق . . .كذلك كان طه حسين وعلي عبد الرزاق يخوضان معركة زعزعة النموذج –تعني الإسلام- بإسقاط صفة الأصالة فيه،ورده إلى الموروث التاريخي ليؤكد أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه هذا الموروث ،ويملك أن يحيله إلى موضوع للبحث العلمي والنظر كما يملك حق إعادة النظر فيما اكتسب صفة القداسة{ القران والحديث }وحـ الأسطورة المقدسة وحق الأسئلة والبحث عن الأجوبة"( )ويقول احد الحداثيين العرب :" أن نخلع جبة الأصول ،وقلنسوة الوعظ،لنترك للشاعر حرية مسألة النص ،ونقض الماضي وتجاربه،ولنترك لأنفسنا فسحة لنصغي لتجربته الجديدة وما تقترحه من أسئلة ،وليس هذا من حق الشاعر فحسب ولكنه حق حياتنا المعاصرة علينا"( ) فالأدب المتأثر بالحداثة يحاول إذن -التنصل والانسلاخ من كل القيم والثوابت لكن من العجيب على- حد قول رجاء نقاش- "انه لا يما مقومات رصينة يستند عليها ،ففي الوقت الذي يعلنون فيه إنهم يكتبون قصيدة النثر، -مثلا- الخالية من كل قيود القصيدة القديمة من وزن وقافية نجد إن تراثنا الأدبي مليء بالنثر المرصع

بندى وجوهر الشعر وعذوبته من كتابات أبي العلاء في"الفصول والغايات"وكتابات أبي حيان التوحيدي،وقد عرفنا هذا اللون من النثر الممتزج بروح الشعر في كثير من كتابات المعاصرين مثل المنفلوطي والرافعي والعقاد وزكي مبارك واحمد حسن الزيات وغيرهم، نحن لا ندعو إلى الانعزال عن الثقافة والآداب العالمية بل ندعو إلى التواصل معها على مبدأ الانتقاء والاصطفاء الذي يلائم فكرنا وشخصيتنا وانتمائنا العربي الإسلامي" ( ) فهذا جبران على الرغم من كونه من دعاة التغريب في أدبنا العربي الحديث إلا أننا نجده يصف العلاقة بين الشرق والغرب وصفا صحيحا إذ يقول:"قلد الغرب الشرق بحيث مضغ وحول الصالح مما اقتبسه إلى كيانه أما الشرق فانه اليوم يقلد الغرب فيتناول ما يطبخه الغربيون ويبتلعه دون أن يحوله إلى كيانه ،بل على العكس يحول كيانه إلى كيان غربي..."( ) فالانفتاح على الآخر مطلوب والانتفاع من منجزاته ضروري في مجال الجماليات ولكن برؤى إنسانية عربية إسلامية غير مكدرة ولا مهجنة، نريده أدبا صافيا من شوائب التيه والانحلا .

ازداد تأثر الأدب العربي بالمذاهب الأدبية الغربية منذ منتصف القرن العشرين ،وتحول بعضه على يد بعض " "إلى دعوات محمومة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها ،وصار جهدا دؤبا لتأصيل القيم الغربية في الفن والحياة ،ولم يقتصر التأثير على استعادة الأدوات الفنية بل امتد إلى الخلفيات الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب الأدبية الغربية ،فقد صدر دواوين وقصص تحمل صورتها وتدعو إليها صراحة وضمنا . وتبعا لذلك فقد توزع قسم من أدبنا خلف الأيديولوجيات المختلفة اذ وجدت الماركسية قبل سقوطها هزمت في بلادها وعزلت عن الحياة منذ عصور النهضة وكذا الحال في سائر النظريات والمناهج الدخيلة على أدبنا وواقعنا ،فأصاب أدبنا المعاصر شيء من الانحطاط الفكري تزامن معه انحطاط سلوكي وأخلاقي إذ ظهرت أعمال أدبية تعبث بالقيم الأخلاقية عبثا شديدا ،وتصور العفن والهبوط والنزوات الجنسية المحرمة على إنها عواطف إنسانية رقيقة جديرة بالاهتمام وتسوغ التحلل وتسعى إلى ترسيخه في أعماق الشباب تحت ستار الحرية الشخصية وحرية الفكر والإبداع .( )

فمظاهر التغريب وصوره كثيرة جدا في الأدب العربي المعاصر إذ تتلون مع تلون الجنس الأدبي ومبدعه، إلا إننا نرى إمكانية حصرها بثلاثة مظاهر أساسية هي:

- **الانحراف**
-
-

الانحراف العقدي:

برزت مظاهر الانحراف العقدي الأدب العربي في وقت مبكر منذ أن انفتح المجتمع الإسلامي في العصر العباسي على المجتمعات الأخرى وترجم آدابها وعلومها ،ودخول الفلسفة وعلم الكلام الميدان الثقافي فشهد الأدب بوادر الانحراف الأولى بعد ذلك ولكن على استحياء ،فهذا المتنبي يقرع الأسماع بمثل قوله :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد( )

وأفحش من قول المتنبي ما جا في مدح ابن هانيء الاندلسي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي عندما قال :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم يعصف الانحراف العقدي في كتابات آخرين مثل أبي تمام إلى أن يمتد إلى الأدب المعاصر فيبلغ شأوا بعيدا بسبب من تأثير المذاهب والتيارات الفلسفية والفكرية الحديثة فضلا عن الانفتاح غير المنضبط على الثقافات الأخرى ،فأضحت ظاهرة الانحراف العقدي ملمحا بارزا من ملامح شعر هذه المرحلة وكتاباتها ،وحسبنا عرض بعض النماذج الأدبية هنا غير غافلين عن حرية الكتابة والإبداع والفكر ،كما إننا نرفض ممارسة الوصاية وتقنين الإبداع ،أو محاولة اسلمة الخطاب الأدبي ،بيد أننا سنضع الإصبع على مجموعة من الخوارم العقدية والأيديولوجية والتي تمثل قيما عليا في تراثنا

الإسلامي والعربي ،فأرجو أن لا ننكر لأحد عرشه أو نضع السقاية في رحله ،أو نتهمه ونسفه فكره،فهذا بدر شاكر لسياب يتكلم عن ذاته وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) والله جل وعلا وهم في ظل الاحتلال:(فالنبي يركل بالحذاء . . .أحذية الغزاة قبل أن يموت هو والله. .)" تعالى الله الحي الذي لا يمو علوا

. . .

فلم تفلح الرمزية والأسطورة وأسلوب القناع التي برع فيهما لسياب من ئه من هذا المطب العقدي الخطير،فالنص هنا واضح الدلالة والمعنى لا يحتم أي تأويل أو ترميز، فيقول في قصيدته "في المغرب العربي":

كان محمد نقشا على آجرة خضراء

يزهو في أعاليها..
فأمسى تأكل الغبراء
والنيران من معناه
ويركله الغزاة بلا حذاء
بلا قدم
وتنزف منه دون دم
جراح دونما الم
فقد مات...
ومتنا فيه ،من موتى ومن أحياء
فنحن جميعا أموات
أنا ومحمد والله
وهذا قبرنا أنقاض مئذنة معفرة
عليها يكتب اسم محمد والله
على كسر مبعثرة
من الآجر والفخار.(١٢)

أما على المستوى الفني فمن الواضح أن القصيدة تعاني من تقريرية ومباشرة سلبتها سمة الإبداع والابتكار والتجديد التصويري من أمثلة ذلك قوله:أنا ومحمد والله- -ويركله الغزاة بلا حذاء- -إلى أخر هذه الصور التي تبدو سطحية وفجة إلى حد بعيد .

وتتكرر ظاهرة الانحراف العقدي على نحو بارز عند كثير من شعراء الحداثة والمتأثرين بالأدب الغربي ،ولعل الشواهد الآتية تدل على ذلك فهذا رائد من رواد الحداثة في العصر الحديث"ادونيس" يقو : واصفا ثورة الحداثة في نظره في مقطوعة منها:

بلا في بلادي أنا خالقون.
وساع كآفاقها الواسعة.
نقيون كالشمس في عريها
نقيون كالأنجم الطالعة
يحبون في أرضهم كل شيء
ويبنون من جرحهم صرحها
ويرون في دمهم صبحها . .

تلك مقاطع من قصيدة الفراغ لادونيس تحدث فيها عن ارض المسلمين بتهكم وازدراء ، ونلحظ فيها العبثية ونسبة الخلق في قصيدته إلى من وصفهم بالخالقين،في سقوط فني واضطراب أيضا، ومن ذلك قوله:

أيها الضوء:
خلقت إلها ويرفضك الظلام
الهذا كنت العين الواحدة التي خلقت من اجل أن تسكنها الظلمات
ألهذا كنت الخالق يلبس شكل الخليقة(١٣)

تأمل تلك المعاني المتهافتة والغريبة عن الشعر الإيماني الذي يمثل الشعور السائد عند المسلمين ،ولكن الشيء من معدنه لا يستغر فقد أعلن عن رسالته قائلا:**"أنا المتوثن والهم عبادتي"**.

ومثل تلك المعاني في انحرافها وسقوطها قول عبد العزيز المقالح الشاعر اليماني

صار الله رمادا فنما
رعبا في كف الجلادين
ارض تترنم بالبترول
حقلا ينبت سبحات وعمائم
بين الرب والأغنية الثورية
والرب القادم من هوليود
في أشرطة التسجيل
في رزم الدولارات
رب القهر الطبيعي
ماذا نختار؟
اختار الله،الأغنية الثورية (١٤)

تعالى الله عما يقول علوا كبيرا ،فلا شك في إن مثل هذه العبارات ومعانيها بما تحمله من دلالات منحرفة هي وما في حكمها مما يهدم الدين ويصادم معتقد المسلمين ويثير الحفائظ ويهيج المشاعر،بل إنها قد تنمي ظاهرة الغلو والتطرف في مقابل ذلك الغلو والتطرف في الإلحاد ،**وإذا ما تناولنا الفني فإن الصورة الفنية لم تكن بأحسن حالا من المضامين في تهافتها وتفكك أجزائها ،فماذا بقي من القصيدة !!!**

ويمتد الانحراف العقدي والتغريب ليدل على فساد الصورة عند بعض المبدعين فنجد بعضهم يتحدث عن الله تبارك وتعالى كأنه يتعامل مع رمز ولااقول مع وثن فعبد الوهاب البياتي في ديوانه كلمات لا تمو يقول:

الله في مدينتي يبيعه اليهود
الله في مدينتي مشرد طريد!
أراده الغزاة أن يكون
لهم أجيرا... شاعرا... قواد
يخدع في قيثاره المذهب العباد.
لكنه أصيب بالجنون
لأنه أراد أن يصون
زنابق الحقول من جرادهم
أراد أن يكون(١٥)

أي اله هذا الذي يباع والذي يعيش فريدا طريدا والذي يريد منه أعداؤه أن يتحول إلى أجير.. إلى شاعر.. إلى قواد! إن عبد الوهاب البياتي لم يصور الله كما صور لينين:

...أقوال لينين

وهي تلهم الأجيال
وتصنع الرجال
المحها في وطني تزلزل الجبال
يا أخوتي *العمال*

ومظاهر التحلل العقدي والأخلاقي والتغريب الاجتماعي الشيء المميز في شعر عبد الوهاب البياتي ،فأي رسالة تبقى للفن إذا ما خسر تلك القيم العالية والأهداف السامية ،يقابل ذلك كله تقريرية فجة في صياغة العبارة وبلغة شعرية تعج بالتكرار غير المجدي .

ولا يبتعد محمد الماغوط في شعره عن المعاني التي جاء بها البياتي ،فيعزف هو الآخر على وتر الاشتراكية والماركسية ليكتب لنا أدبا مليئا بالمفردات التي لا تليق بالله عز وجل،وكأن القارىء يحس في شعرهما ملامح ثورة عارمة على كل شيء،المثل والقيم والمباديء والموروث ذلك كله انتصارا للجياع الذين يكثر ذكرهم في شعر الشاعرين خاصة وشعراء الحداثة على نحو عام ،فيقول الماغوط نيابة عن الجياع:

إنني اعد ملفا ضخما
عن العذاب البشري
لأرفعه إلى الله
فور توقيعه بشفاه الجياع
وأهداب المنتظرين
ولكن ياايها التعساء في كل مكان
جل ماخشاه
أن يكون الله أميا(١٦)

قال تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم

} / وقال تعالى {وفوق كل ذي علم عليم }يوسف/

وقد تميز الشعر المعاصر عموما بالجرأة على القيم والثوابت وكان أشدها على المستوى العقدي هو الجرأة على الله عز وجل فهذا محمد الفيتوري الشاعر السوداني ينضم إلى جوقة المجترأين بقصيدة يقول في مقطع منها:

لا شيء لك اكتب بكلمه
فالكلمة في شفة الله
والله على الأرض سجين(١٧)

يعلم جميعنا"إن أعذب الشعر أكذبه" فهل صار أعذب الشعر أجرأه؟ وليته كان عذبا ،فالذي يستغرب إن تلك الانحرافات العقدية غير خاضعة للتأويل والترميز ومن ثم فهي لا تؤدي أي غرض فني يخدم الجانب الصوري والفني

للقصيدة ،فإذا ما استبدلت تلك المعاني والألفاظ بغيرها فلا ضير وربما جاءت بخير،فهؤلاء فحول الشعر دوننا جاءوا بما لم يأت به القوم- -من دون زيغ أو بغي .

ومن نماذج العبثية ومظاهر الانحراف استغلال الجنس ودغدغة مشاعر النساء من اجل إسقاطهن في أحضان الشهوة، ولو كان ذلك على حساب السخرية من الخالق -جل في علاه- كقول نزار قباني:

فاليوم اخلق منك اله
واجعل نهديك قطعة من جوهر
ويقول أيضا:
كان ثغرك مرة
ربي فأصبح خادمي
ويقول كذلك:
لا تخجلي مني فهذه فرصتي
لأكون ربا أو أكون *رسولا* (١٨)

ومن السخرية والعبث بالمعاني والاستخفاف بالله قول معين بسيسو في إحدى قصائده والتي تمثل هبوطا على المستويين الفني والموضوعي، لخلوها من الابتكار والتجديد في عرض الفكرة مع وجود المعاني غير المترابطة شكلا ولغة ولم تعن صاحبها في إبداع أدب يمكن وصفه بالجيد ، وما يسجـ للقصيدة وصاحبها من تجديد هو القالب التجديفي الذي طغى على مضمون القصيدة:

باسمك تلك المومس
ترقص بقناع الرب
باسمك يتدحرج رأس الرب(١٩)

:

امة العرب امة فطرية،سادت فيها المروءات وانتشرت بين قبائلها الفضائل والمكرمات ،وعرفت بمحاسـ الآداب وروائع الصفات لذا كان معنى الأدب عندهم ينصرف إلى الدعاء ،ثم أصبح معنى الآدب الذي يتأدب به الأديب من الناس،وسمي أدبا لأنه يؤدب الناس إلى المحامد وبذلك يتضح من المعنى اللغوي والدلالي لمصطلح ( ) عند العرب انه ما دا على محامد الخصال وقاد إلى فضائل الأمور ودعا إليها . وبمجيء الإسلام تأكد هذا المعنى للأدب ،غير إن هذا المعنى العام لم يستمر طويلا ،و لاسيما في العصر الراهن إذ ظهرت

أعمال أدبية معاصرة تعبث بالقيم الأخلاقية عبثا شديدا وتصور العفن والهبوط والنزوات الجنسية المحرمة على إنها عواطف إنسانية رقيقة جديرة بالاهتمام تسوغ التحلل والتفسخ وتسعى إلى ترسيخه في نفوس الشباب تحت شعار الحرية الشخصية. .

وقد لاقى هذا الأدب الرخيص تشجيعا من بعض الأجهزة والهيئات والمؤسسات الثقافية والإعلامية في الكثير من بلداننا ،كما أقبلت دور النشر على هذا الأدب المكشوف في سباق محموم، وصارت هذه الأعمال بفضل التطبيع والتغريب عنوانا(للتنوير)و(الموديرنزم)وشعارا للحداثة،وطريقا إلى (التفكير العلمي)الصحيح وتماشيا مع روح العصر وآفاقه ( )

وسنتعرض لجملة من الأعمال التي وجدنا فيها تفريطا في جانب الالتزام الأخلاقي فضلا عن إباحيتها وتكريسها للرذائل والموبقات ولا نقصد بذلك ممارسة النقد الأخلاقي بقدر جهدنا لبيان جانب المضمون للقصيدة في عصرنا الراهن .

وسنبدأ هذه المرة من النثر ومع جنس الرواية وتحديدا مع رواية(عمارة يعقوبيان)لعلاء الأسواني الحديثة الإصدار إذ صدرت في العام والتي نالت شهرة كبيرة وهي تحكي قصة صاحب (بار) اسمه عزيز شهرته(الإنكليزي) مصاب بالشذوذ وينظم حفلات ماجنة يقدم فيها الشواذ إلى السياح العرب وتدر عليه تجارة الشذوذ أرباحا طائلة تجعله بمأمن من المضايقات الأمنية ،كما تظهر شخصية ألام في هذه الرواية بصورة سلبية إذ إنها تطلب من ابنتها الاستمرار في العمل على الرغم من التحرشات الجنسية والمضايقات الكثيرة التي

بدعوى :" ". (٢١)

إن رواية (عمارة يعقوبيان) لم تكن بدعا بين الروايات المعاصرة فثمة روايات عربية أخرى تشيع فيها نقيصة بغيضة هي تزيين الرذيلة،فموضوع الرواية الشذوذ الجنسي وسط واقع عربي تسود فيه القيم والأخلاق المحافظة كما إن الرواية كتبت بلغة فجة بعيدة عن الفن وبتقريرية وسطحية لافتة ومع هذا فان كاتبها واثق من

أن كتاباته ستجد الرواج ،لأنه يتناول موضوع الزنا واللواط والتي يعتقد –أيضا - انه من خلالها سيقدم صورا جديدة للإبداع العربي .

وهاهي (ناني الأرستقراطية)في رواية السيد إبراهيم(أيام في الوحل) تتحدث عن تجربتها في البغاء بكل فخر في عصر الانفتاح:**"الأمر ليس مأساة،أنا اخترت حياتي بنفسي،لم أكن ضحية لأحد أمي هجرتني وتزوجت،وعشت أنا مدللة في بيت الجدة،افترسني السائق برضاي،وأنا في عمر الزهور وأصبحت عادة وكنت اختار الضحايا ثم لم اعد اقتنع بالقليل فتركت المنزل وعشت حرة أتجول في الفنادق والشقق المفروشة اختار زبائني بعناية فائقة،أنا واحدة ممن يساندون اقتصاد البلد "(٢٢)**.فهاهو الكاتب الفاضل يسوق على لسان هذه البغي –إن الزنا ليس مأساة-وإنها هي التي اختارت الرذيلة. .إنها حرة. . والأدهى والأمر إن الرواية تصور هذا العهر وكأنه البديل عن الزواج:**"أنت خايبة يا لواحظ زوج إيه وزفت إيه؟انت حره،أحسن تكسبي كتير عندنا الأمريكي والأفريقي وحتى الصنف الياباني..بلاش حكاية الجواز دي..!!"** .( ) تبرز تلك الرواية القلق الفكري والاضطراب الذي يسيطر على تلك الشرائح المتأزمة التي يتحدث عنها الروائي ،فأبطاله يتنازعهم تياران أحدهما: تيار القيم والمبادئ والثاني ،هشيم الأفكار والشعارات التي يلمع بريقها من الغرب .وكان لابد من الصراع بأشكاله المختلفة لتنتصر ت التحرر والحداثة .

ومن آثار الاغتراب أو التغريب التحلل الأخلاقي الذي أصاب شعرنا المعاصر فقد امتهنت المرأة في الشعر الحديث أيما امتهان ،فهي محطة للجنس والشهوة ،وأعضاء جسدها مفردات للغة الشعرية ،فقلما تجد شعرا يخلو من "الأثداء والنهود والأفخاذ،والصدور والثغور"،يقول سميح القاسم:

وطني يا قرطا بتأرجح
من إذن الكرة الأرضية

ياأمراة تفتح فخذيها للريح الغربية(٢٤)

ويقول ادونيس:

هذي بلادي رفعت فخذها راية

وقول آخر عن المراة:

فاليوم اخلق منك اله

واجعل نهدك خادمي

ويقول أيضا:

كان ثغرك مرة

ربي فأصبح خادمي... .(٢٥)

ومن صور التغريب الأخرى في أدبنا المعاصر دعوة المرأة للحرية المطلقة والتحرر من كل التقاليد والقيم والتعاليم السماوية ،وسد أبواب الفضائل وفتح أبواب الخطايا والرذائل ،وجعل المجتمع مسؤولا عن خطاياها، فقد دعا معظم الأدبـ ين بالحداثة إلى التحرر من القيم والفضائل وضخموا الغثاء الأخلاقي والتحلل الاجتماعي مع المحافظ ،واشعروا القارئ بصورة مباشرة وغير مباشرة أن تلك المستنقعات الأسنة تجري في جميع شرائح المجتمع ،وتتمثل صور التغريب هذه على أشدها في أدب إحسان عبد القدوس ،فنجده في قصة (كل النساء)وهي قصة رمزية جريئة يبين فيها بوضوح نظرته إلى المرأة فهي ضعيفة تستسلم لما يقوله الرجل فيحلل الحرام وتقول له صحيح بل جعلها تسلم نفسها وأقنعها بعدم وجود شيء اسمه( )،وان المحافظة عليه تقليد بال كما يعكسه هذا الحوار بين رجل وامرأة بعد أن وهبت نفسها له:

قال: لقد اتفقنا على إن ليس هناك ما يسمى الشرف..

قالت :إذن لماذا أحس بالندم..

قال:انك تندمين على هذه اللحظات التي مرت سريعا. (٢٦)

إن من اشد آثار التغريب والتقليد الفج للآداب الأجنبية انك تجد الأدب العربي الحديث يعيـــــــــــ بلا هـــــــوية وبلا خصوصية أو تماسك. .وأعقب ذلك ظهور أقلام مؤثرة لنبش العفن في موروثنا الأدبي بحجة انه موروث وتقليدي،فجاء إحياء الفكر الاعتزالي والوثني،وشعر المجون والغزل الفاحش ،كما أعيدت ظواهر أدبية

وشخصيات مشبوهة لم تكن حاضرة في الذهن رغبة في تحويلها إلى قدوة سيئة للناشئة فمثلا تجد الصعاليك والزنادقة والشعوبيين والباطنيين وغيرهم، كل أولئك يترددون على السنة الأدباء بشكل لم يسبق له مثيل،وتتكرس صور التغريب على نحو واضح في الحيرة والاضطراب الفكري الذي يعانيه الأديب أمام الكثير من الأسئلة التي تتعلق بوجوده ودوره في هذه البسيطة وجاءت هذه الحيرة بسبب ظهور تيارات فكرية فلسفية مثل العلمانية والاشتراكية والمادية وغيرها وظهور أدباء تبنوا الفكر العلماني والاشتراكي والمادي ودعوا إليه في كتاباتهم فهذه شاعرة معاصرة تدور في حيرة واضطراب تنطق باليأس القاتل وتتردد في أمرها وتجهل مصيرها ولا تعر الغاية تها كما في هذا المقطع من أحد قصائدها:

أنا من ؟أنا لا اعلم شيء بصدري مبهم
ماض تولى كالشعاع وحاضر يتحطم
لكأني ابني غدي ويدي الزمان تهدم(٢٧)

ويبدو واضحا عبر هذا من القصيدة اللغة التقريرية الفجة والمباشرة في الأسلوب فضلا عن سطحية التشبيه وابتذاله (ماض تولى كالشعاع ....)و لكأني ابني غدي ...

ثم أن الحيرة والاضطراب والسؤال عن سر الخلق وهما موضوع القصيدة مقتبسة من مكررة ومقتبسة من قصيد إيليا أبي ماضي الطلاسم ،مما يعني ان القصيدة سقطت في فخ التكرار وابتعدت عن دائرة الجدة والإبداع المرجوتين في الصياغة الأدبية.

ومن صور الضياع الفكري والانحراف العقدي قول علي ناصر(الشاعر السوري):.

تارة أستحيل ربا عظيما
وجميع الأكوان طي فؤادي
ثم ينتابني فراغ مرير
في ثناياه تمحي أبعادي
كيف أهدأ،وكل أن أراني
بين الضدين حائرا باطراد.. .(٢٨)

بل إن نزار قباني يصرح بقلقه وإلحاده حينما قدم نفسه الى حبيبته في بعض أشعاره،فيقول:
فانا إنسان مفقود

لا اعرف في الأرض مكاني
تاريخي..مالي تاريخ
إني نسيان النسيان..
ماذا أعطيك أجيبي؟
قلقي..الحادي..غثياني.(٢٩)

و شاهد على التحلل الفكري في الأدب العربي المعاصر كثيرة جدا والعبرة بدلالة الشاهد لا بوفرته،وقد أتسمت بعض النصوص الأدبية في هذه المرحلة بتأثرها بمذاهب فكرية غربية إذا وجدت الاشتراكية والماركسية والوجودية مروجي لأفكارها ومبادئها ودعاة مخلصين لها حاولوا جهدهم تثبيت جذورها في أرض غير أرضها ومناخ غير مناخها فكان زرعهم هشيم وثمره سقيم وما نما منه فمر غريب عديم الفائدة ومن المستغرب أننا نجد هذا التشبث بهذه المذاهب بعد أن هزمت في البلاد التي نشأت فيها واثبت الواقع عدم صلاحيتها .

غير أن الواقع العربي بكل ملابساته وتناقضاته قد ألقى بأعبائه وثقله على كاهل الجيل المثقف المتطلع ،فضلا عن انبهر هؤلاء الشباب بالغرب وثقافته غثها وسمينها أقول كل هذا أدى بالنتيجة لظهور أعمال أدبية غريبة عن مفاهيمنا وقيمنا الأصيلة .. ( )

تزامن مع هذه الثورة العارمة على المضامين والأفكار ثورة أخرى على الأشكال الأدبية كان من أبرز أشكالها التخلص من القافية فهي عندهم بمثابة قيود ثقيلة ترسف في أرجل الشعر فولدت قصيدة الشعر الحر كتطور جديد في نظام القصيدة التقليدي ثم تبعه الشعر المنثور والمرسل بوصفهما امتداداً طبيعيا لذلك التطور..

والحق يقال ان القصيدة الجديدة لم تستطع على صعيد المستوى الفني ان تبتكر صوراً جديدة وتشبيهات طريفة وأساليب فنية عتيدة تبز فيها القصيدة التقليدية أو تجاريها ،وهذه الحقيقة لاتجرد القصيدة الجديدة من سمة الإبداع فهناك قصائد للسياب ونازك الملائكة والبياتي وغيرهم .

الهوامش

_ .

: :

:

.

.

:

( )

.

.

( ) مـــن مجموعـــة الوســـادة الخالية، إحـــسان عبـــد

.

/ _

-

المصادر والمراجع

- أباطيل وأسمار،محمود محمد شاكر- مكتبة الخانكي / القاهرة
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ،د .محمد محمد حسين/ دار الأرشاد ،طبعة خاصة ١٣٨٩هـ ١٩٧٠م
- أضواء على الثقافة الإسلامية ،د. نادية شريف العمري -/ مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م
- الأعمال الشعرية الكاملة نزار قباني ،دار الشروق - دمشق ١٩٩٥م
- أيام في الوحل (يوميات شقة مفروشة)السيد إبراهيم - دار السندباد المصري القاهرة ١٩٩٩م

- تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث ،د.نعيم اليافي ـصفحات للدراسة والنشر ـ دمشق ٢٠٠٨م
- الالتزام في الشعر العربي،د.أحمد أبو حاقة ندار العلم للملايين ،بيروت /الطبعة الأولى /١٩٧٩م
- ثقافة الإرهاب والعولمة (دراسات نقدية)،حسب الله يحيى ،الطبعة الثانية ، بغداد ـ ٢٠٠٤
- جدلية الخفاء والتجلي ،كمال أبو ديب ـ الشركة التونسية، الطبعة الثانية تونس ١٩٩٢م
- حركية الإبداع (دراسات في الأدب العربي الحديث)خالدة سعيد ـ دار العودة ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٠.
- سبل المؤثرات الأجنبية واشكالها في القصة السورية الحديثة :حسام الخطيب ،دار نهضة مصر للطبع والنشر،١٩٧١ .
- السرد العربي(مفاهيم وتجليات) سعيد يقطين /رؤية للنشر والتوزيع
- ديوان أودنيس ـ دار الأصالة للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ،بيروت ،لبنان
- ديوان بدر شاكر السياب دار العودة ،بيروت
- ديوان سميح القاسم ، دار العودة ،بيروت،١٩٧١م
- ديوان عبد العزيز المقالح ،مكتبة الصباح ،عمان
- ديوان عبد الوهاب البياتي ،دار العودة بيروت
- ديوان علي ناصر المطبعة السورية الحديثة ٢٠٠٠م
- ديوان محمد الفتيوري ـ مكتبة الناجي القاهرة
- ديوان محمد الماغوط ـ مكتبة مصر الجديد
- ديوان معين بسيسو ـ مكتبة الأديب مصر ـ القاهرة
- رواية عمارة يعقوبيان علاء الأسواني ، مكتبة مدبولي الطبعة ا ا لسابعة٢٠٠٥
- فن القصة، محمد يوسف نجم ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥
- قصة لكل النساء من مجموعة الوسادة الخالية، أحسان عبد القدوس ـ مكتبة الشرق الطبعة الأولى القاهرة
- المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران،مكتبة الجيل ـ بيروت
- مستقبل الثقافة في مصر ،طه حسين ،دار المعارف المصرية
- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، د.عبد الرحمن رأفت باشا ـ دار العلوم ،الرياض الطبعة الثانية ١٩٨٩م
- اليوم والغد ،سلامة موسى ـ منشأة المعارف ،الطبعة الثانية ،الاسكندرية ١٩٦٦